بنية الشخصية في الرواية السعودية
مرحلة الريادة والبدايات

الدكتور :
ظافر بن عبدالله الشهري*

* بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها من كلية اللغة العربية بأبها فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً (جامعة الملك خالد الآن) عام ١٤٠٠هـ .
- ماجستير في الأدب والنقد من كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٤٠٦هـ .
- دكتوراه في الأدب والنقد من كلية اللغة العربية من الجامعة نفسها عام ١٤١١هـ .
- يعمل الآن أستاذ الأدب والنقد المشارك بجامعة الملك فيصل بالأحساء .

الملخص

تناول هذا البحث بنية الشخصية في الرواية السعودية في مرحلة الريادة والبدايات التي نستطيع تحديدها زمنياً بالفترة من ١٣٤٩ إلى ١٣٨٠هـ ، فتحدث عن ماهيتها وطبيعتها وصفاتها، وكيف كان الروائي السعودي في هذه المرحلة يرسم شخصياته، ويتعامل معها ويتعرف على ملامحها النفسية والاجتماعية. وكانت رواية "التوأمان" لعبد القدوس الأنصاري التي صدرت عام ١٩٣٠م بداية لأعمال روائية أخرى لم تفلت الشخصيات فيها من يد الروائي، فهو الذي يرسم شخصياته أو على الأقل شخصيته الأساسية .

وكان الروائي في هذه المرحلة هو الذي يمسك بخيوط اللعبة الروائية ويعرف عن الشخصيات كل شيء .

واتضح من البحث في هذا الموضوع أن هناك شبهاً واضحاً بين بعض الشخصيات عند الرواة السعوديين في هذه المرحلة وشخصيات بعض الرواة المصريين، كما هو عند محمد حسين هيكل في روايته "زينب" وحامد دمنهوري في روايته "ثمن التضحية" وكذلك عند طه حسين في "الأيام" وأحمد السباعي في " أيامي " .

وقد تبين أن الشخصية في الرواية السعودية في مرحلة البدايات كانت شخصية عادية قريبة كل القرب من الواقع، شخصيات تقليدية

إيجابية تعيش الواقع ولا تتمرد عليه، لذلك نجدها لا تنفك عن العادات والتقاليد السعودية والإسلامية، ولها غايات أخلاقية وسلوكية تتواءم مع تعاليم الإسلام والفطرة البيئية ، لذلك كانت لغتها - غالباً - قائمة على السرد المباشر الذي تضمن العظات والقيم والنصائح كما في لغة الخطابة والرسائل وغيرهما، وذلك باستثناء بعض ومضات التحرر التي قد تكون شاذة في سلوك بعض الشخصيات مثل "فريد" في "التوأمان"؛ إذ لم يرتفع الروائي في هذه الحقبة بشخصياته إلى مصاف الشخصية الروائية المعقدة النامية التي تجذب الأنظار إليها بما فيها من غنى وتعقيد وثراء، ولم يستطع أن ينتقل بها من صورتها في الواقع إلى صورتها الفنية الخيالية وهي شخصيات لم تستقل عن مؤلفيها، ولم تستطع الخروج على إرادات كتابها .

وهذا النهج الروائي في بناء الشخصيات عند أدبائنا الرواد ليس بشاذ ولا غريب عن بدايات الرواية في الآداب العالمية والعربية بصفة خاصة ؛ لأن ذلك شأن البدايات لكل جديد ومبتكر في شتى الفنون والعلوم، بل يعد اللبنات الأولى للرواية السعودية والأساس الذي انطلق منه الروائيون بعد ذلك .

بنية الشخصية في الرواية السعودية

مرحلة الريادة والبدايات

علينا أن نتساءل أولاً عن ماهية الشخصية في الرواية السعودية في مرحلة الريادة والبدايات، ما طبيعتها؟ وما صفاتها؟ كيف كان الروائي السعودي في هذه المرحلة يرسم شخصياته؟ كيف كان يتعامل معها؟ هل كان يهتم بها على حساب اهتمامه بالعناصر الفنية الأخرى؟ أو كان يهتم بتلك العناصر أكثر من اهتمامه بالشخصية؟ هل كانت الشخصية في هذه المرحلة وسيلة أم كانت غاية؟

هذه الأسئلة وسواها ما سنحاول أن نلقي عليه الضوء في هذه الدراسة .

إذا حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة، فإنه ينبغي علينا أن نستعرض الشخصيات المحورية في الروايات التي تنتمي إلى هذه المرحلة أو بعض هذه الروايات على الأقل .

بنية الشخصية في رواية "التوأمان" :

الرواية السعودية الأولى وهي بعنوان "التوأمان" لعبد القدوس الأنصاري، وقد صدرت عام ١٩٣٠م، تطالعنا فيها شخصيتان محوريتان (رشيد وفريد)، وعنوان الرواية يشير إشارة واضحة إلى أن البطولة فيها لشخصيتين معاً "التوأمان" وكأن الفكرة التي يريد أن يعالجها الروائي هي التي استدعت أن تكون البطولة مقسمة بين شخصيتين، مستلهماً الصراع بينهما من فكرة الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، ولذلك كان "رشيد" شخصية مختلفة كل الاختلاف عن توأمه "فريد" الذي كان هو الآخر بدوره مختلفاً عن أخيه "رشيد"، ويمكننا أن نضع شخصية " رشيد " في الزاوية الإيجابية من وجهة نظر الروائي، وأن نضع شقيقه التوأم في الزاوية السلبية، ومع ذلك تظل البطولة مقسمة بين الشخصيتين .

وإذا أردنا أن نصنف هاتين الشخصيتين من حيث الشخصية النامية، والثابتة، فإننا نجد أن الشخصيتين تنتميان إلى حقل واحد، وهو حقل الشخصية النامية، فرشيد تنمو شخصيته وفق المعطيات والظروف التي تقدمها البيئة التي عاش فيها- وخاصة - المدارس التي كان قد تعلم فيها، التي أهلته لأن يكون مسلماً أولاً وعربياً ثانياً وشرقياً ثالثاً. ولذلك واجه أخاه في غير مكان من الرواية ليدافع عن الثوابت التي تنتمي إليها شخصيته، وكان ينبه أباه إلى الطريق التي يسلكها أخوه فريد، وخطورة هذا المسلك - وخاصة - بعد أن سافر إلى باريس وأرسل إلى والده برقية يطمئنه فيها على نفسه، ويطلب منه مزيداً من المال، فدعا الوالد ابنه رشيداً ليطلعه على مضمون هذه البرقية، وقد تأثر بما تضمنته برقية أخيه فقال :

(- أحسن أخي فريد فيما أشار إليه من جهة ضخامة نفقاته، فهو هناك كما لا يخفى على أنظاركم السديدة يا مولاي في أرفه عواصم أوروبا وأفخمها، فأحرى به أن تمثل نفقاته نفقات أقرانه هناك :

غير أني يا سيدي الوالد يسوؤني أن ألوح لك بما تفرسته من نيات ومقاصد فريد التي لا تتفق مع المظهر الذي تظاهر به في رحلته هذه والمستقبل كشاف وغاية ما أقول:

- كفاه الله شر مزالق الحرية المشئومة الضاربة أطنابها بتلك القارة النازحة)[1].

وفي رسالة بين فريد ورشيد نجد أن رشيداً يدافع في رده على أخيه عن العادات والتقاليد والمعتقدات الشرقية، والحضارة العربية الإسلامية وجاء في ذلك قوله :

(.. وتُجاهر بهمجيتنا نحن الشرقيين في وقاحة كوقاحة طوائف المبشرين المستعمرين وتدعي أنها تالدة فينا وسليلة أسلافنا العاملين وكأنك بهذا الذم أجنبي عنا.

وتفنيد هرائك في هذا الصدد أغناني عنه عزوكه إلى الذين سميت .

وأبنت لي يا فريد عن مبلغ جهلك بتاريخ أمتك العربية المجيدة جهلاً لا أجد له مبرراً أصلاً .. وذلك حيث نوهت لي عن موازنتك الحمقاء بين حضارة أسلافك والحضارة الغربية الحاضرة، فحكمت لهذه على تلك بدون استعراض الماضي واستقراء الحاضر ..)[2].

وتنمو شخصية فريد ضمن معطيات مختلفة عن المعطيات التي كانت تنمو فيها شخصية أخيه رشيد، فقد كان فريد شخصية متأهبة، ومتحفزة للتطلع إلى الجديد، وهي شخصية بالرغم من مخالفتها للواقع الذي تعيش فيه متطلعة إلى كل ما هو

---

(١) انظر ، الأنصاري ، عبد القدوس . **التوأمان** - ط٣ - دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة، ١٩٩٤م، ص٦٠ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٧ .

جديد، ومنبهرة بهذا الجديد، حتى وإن كان مخالفاً لعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها، ولذلك يمكننا أن نسمي هذه الشخصية بالشخصية المغامرة والمتهورة والمنفتحة على كل ما هو مجهول في العالم، وهي شخصية اختراقية: بمعنى أنها تخترق حدود تراثها وتقاليدها وعاداتها ومعتقداتها للتطلع إلى معرفة الآخر، واكتشافه عن كثب .

وإذا عدنا إلى شخصية رشيد، فإننا نجد أن الكاتب قد رسم هذه الشخصية كما يشاء، وقد رسمها من الزاوية التي يريد أن يضعها فيها، شخصية إيجابية منظمة كلاسيكية، تحافظ على الحدود والمحيط الذي تعيش ضمنه ، وتنجح نجاحاً باهراً بعد أن تنشأ نشأة شرقية إسلامية، فيصبح رشيد دكتوراً في الحقوق، ويمتهن المحاماة، ويصبح نائباً في مجلس النواب، ويحصل على رتبة الباشوية[1] .

دور الكاتب في رسم شخصيات هذه الرواية :

نستطيع القول إن الأنصاري هو الذي كان يرسم شخصياته، أو على الأقل شخصيته الأساسية كما يشاء من خلال الطريقة التحليلية ومن خلال التخطيط الأولي لأحداث الرواية ومكانها وزمانها وشخصياتها، وهو ما سنجده عند أغلب الروائيين في هذه المرحلة ، وهنا نجد في دلالة الاسم تأكيداً لما نذهب إليه ، فرشيد من الرشد وفي الرشد عقل ووعي ودراية وتخطيط، والرشد والرَّشد والرشاد نقيض الغي، ورشد الإنسان يرشد رشداً .... فهو راشد ورشيد وهو نقيض الضلال[2] .

والمطابقة بين دلالة رشيد اللغوية ودلالة رشيد في معمارية هذه الرواية متجلية تماماً، فرشيد شخصية كلاسيكية ، يدافع عن المعتقدات الإسلامية والقيم الاجتماعية التي تربى عليها آباؤه وأجداده منذ عصر الجاهلية، ولذلك كان "رشيد" رشيداً، أو هكذا شاء له الأنصاري .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٦، ٤٧، ٤٨ .

(٢) انظر : ابن منظور . **لسان العرب** (رشد) .

أما فريد فلاسمه دلالة أخرى، عند الكاتب فهو أي فريد المتميز في شأن من شئون الحياة ، ولكنه تميز لا يحبذه الأنصاري حتى وإن تحركت هذه الشخصية في إطار هذا المعنى وإن كان للفظة فريد في اللغة معانٍ أوضحها أنه منفرد أو وحيد في أمر من الأمور[1]، وإذا عدنا إلى الرواية وجدنا أن المؤلف قد اختار الاسم بعناية فائقة ليبين مدى التهور الذي تتسم به شخصية فريد وكأنه يشير إلى أن مثل هذه الشخصية -والحمد لله- فريدة ونادرة في بيئتنا ومجتمعاتنا، فقد جرفته نزواته إلى أن يسافر بحجة طلب العلم إلى بلاد تختلف بعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها عن بيئته ومجتمعه، فعاش في باريس حياة فيها كثير من التهتك والمجون، وأغرته الحياة اللاهية دون أن يتنبه للعواقب. إذ طرد من الجامعة، وعمل بعد ذلك في مسح الأحذية، ثم كانت نهايته صريعاً في إحدى حانات باريس[2]. وهكذا انتصر الأنصاري لحضارته الشرقية العربية الإسلامية بأن أنهى بطله الثاني نهاية مأساوية ليبين من خلال تعليمية واضحة أن التمسك بالعادات والتقاليد وقاية ودرع حصين، وأن اختراق العادات والتقاليد قد يودي بصاحبه كما حدث مع بطله فريد.

ويمكننا أن نخلص أخيراً إلى أن الروائي كان يمسك بخيوط اللعبة الروائية بيديه، ويقدم نصائحه وعظاته وتعاليمه، وهو يعرف عن الشخصيات كل شيء ، يعرف عن مصيرها ومستقبلها أكثر مما هي تعرف، ويتدخل أيضاً في شؤونها الداخلية، فيرسم إحساساتها، كما تبدو له، ولذلك كانت شخصية رشيد مثالية كل المثالية في تصور المؤلف، نقاها وخلصها من كل الشوائب لتخرج إلى القارئ ناصعة بريئة من الخطأ. أو كأن رشيداً هو البطل الأسطوري عند الأنصاري، وعلى النقيض من ذلك

---

(١) المصدر نفسه، (فرد) .

(٢) **التوأمان** ، ص ٧٦ .

كانت شخصية فريد، فقد تجمعت السلبيات في هذه الشخصية بالرغم من أن الشخصيتين ابنان لأب واحد، ناهيك عن أنهما توأمان، لكن الكاتب أراد أن يضع كلاً منهما في موضع مختلف عن موضع الآخر، ومن هنا كان الأنصاري يرسم شخصيته بالطريقة التقليدية التحليلية فنياً. أما عن أسلوبه فقد كان تقليدياً من حيث استخدام السرد من خلال فعل الماضي وضمير المفرد الغائب"هو".

بنية الشخصية في روايتي "حامد الدمنهوري" :

في رواية " ثمن التضحية " لحامد دمنهوري التي صدرت عام ١٩٤٨م، وقد دارت أحداثها بين مكة المكرمة والقاهرة . تطالعنا شخصية أحمد . هذا الاسم العلم الذي أطلقه الدمنهوري على بطل روايته، واستخدمه لأنه أعرف أنواع المعارف، كما يرى الدكتور طه وادي[1]، نجد هذه الشخصية في بناء الرواية ذات دلالة معنوية، فأحمد من الحمد والمحامد، وهو من الأسماء الدينية النبيلة، وحسبنا به شرفاً أنه من أسماء الرسول محمد - ﷺ -، ولذلك نجد أن هذا الاسم العلم لم يمر عبثاً، ولم يطلق على هذه الشخصية عفواً، وإنما وجدناها شخصية تتسم بالنبل والوفاء والصدق، فقد تعرف أحمد إلى شقيقة زميل مصري له يدعى مصطفى لطفي، وتدعى " فائزة " ابنة المحامي لطفي بيه، فتاة في السادسة عشرة من عمرها، جميلة مثقفة استطاعت أن تستلب لبه لكنها لم تستطع أن تهيمن على عقله، فقد تعهد لوالده وعمه من قبل بأن يرتبط بفاطمة ابنة عمه عبد الرحيم، ولذلك عاش صراعاً شديداً، وداخلياً بين عقله، فرأى أن من واجبه أن يعود إلى مكة المكرمة، وأن ينهي علاقاته بفائزة، وهكذا انتصر العقل على العاطفة، وعاد أحمد إلى مكة المكرمة ومجتمعه وعقله. ويمكن أن تمثل هذه الشخصية البطولة الكلاسيكية، أو التقليدية،

(١) وادي، د. طه . **في نقد الرواية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م، ص٢٨.

فالبطل ينتمي إلى مجتمع محدد يشترط عليه أن يلتزم بقواعده وقوانينه وعاداته، ولذلك لم يكن أحمد متحرراً ولا هو منفلتاً من رواسبه التراثية والاجتماعية، وإنما اختار بملء إرادته أن يعود إلى مكة المكرمة، وإلى والده، وإلى فاطمة أيضاً، وأن يعود إلى أحضان المجتمع الذي خرج منه .

(... ست سنوات .... قضاها بعيداً عن أهله ووطنه، وهاهو ذا الآن في خطوة واحدة يعود إلى دنياه التي تركها، وذكرياته التي أودعها كل شبر من تربة هذه الأرض. وبنظرة إلى وجوه العابرين استعاد ذهنه صورة مدينته التي بعد عنها سنوات طويلة، وأشد ما كانت دهشته حينما تراءت له شوارعها أضيق مما يذكرها، والمنازل أقل ارتفاعاً، وأضأل حجماً، مما تركها ..)[1] .

ويتحرك أحمد في عالمه الروائي ضمن عالمين يتأثر بهما، ففي مصر كان يتحرك ضمن عالم يختلف بعض الاختلاف عن عالمه في مكة المكرمة، فهو عالم فيه شيء غير قليل من الحرية، ففي منزل صديقه مصطفى حين كانا يذاكران معاً طلب كوباً من الماء وسمع بعد لحظات وقع خطوات تقترب من الباب، وانفتح الباب ووقف مرتبكاً لا يدري ماذا يقول .

(رأى أمامه فتاة بيضاء اللون، قدر لها من النظرة الأولى ستة عشر عاماً، في سن " فاطمة ". وفي عينيها تلك النظرة الهادئة، التي تبث الاطمئنان في النفس الحائرة، وتبعث الراحة في النفس القلقة نظرات " فاطمة " التي لا ينكرها..)[2] وأصيب نتيجة لذلك بمفاجأة ضخمة لكنها جميلة ورقيقة، فقد اكتشف أنه يعيش ضمن عالم مختلف عن العالم الذي يعيشه في مكة المكرمة، هنا في القاهرة شيء من التحرر، وشيء من الانفتاح، وهناك الالتزام بعادات وتقاليد مختلفة، وهذه الفتاة

(١) الدمنهوري، حامد . **ثمن التضحية** .- ط١ .- الرياض : دار الفكر ، ١٩٥٩م، ص٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٦ - ٢٣٧ .

"فائزة" تقرأ لرواد الأدب العربي، توفيق الحكيم، وأحمد شوقي، وتقرأ الرواية والشعر والمسرح، وتُحاور وجهاً لوجه أحمد فيما تقرأ، ويشجعها على ذلك أخوها مصطفى، كما أنها تدرس لغات أخرى، ولها نصيب وفير في الرسم والفنون الجميلة[١] .

أما شخصية " إسماعيل " في رواية " ومرت الأيام " لحامد الدمنهوري التي صدرت عام ١٩٦٣م، فهو ابن لأسرة سعودية توفي عائلها، فأخذ يعمل في وزارة المالية، والتقى بتاجر لبناني وقابل ابنته " سلوى " التي أحبته مع أنه كان على علاقة حب مع جارته " سميرة " في مكة المكرمة، لكن " سميرة " تتزوج وتطلَّق من زوجها، وتموت "سلوى" في لبنان، ويظل إسماعيل دون زواج، ويغادر المكان إلى جهة مجهولة .

وهنا نجد المؤلف يقدم لنا صورة واقعية عن شخصيته التي اختارها للبطولة والصورة متكاملة بصفاتها الجسدية والنفسية والاجتماعية، فهو فتى أسمر نحيل ذو حس مرهف يقرأ خارج نطاق الكتب المدرسية، صاحب بيان وفصاحة وصوت شبيه بالموسيقى، وهو فتى خيالي يسعى إلى تحقيق ذاته[٢] .

أما أهم صفاته النفسية، فهي أنه صاحب قرار، يتخذ قراره بمساعدة والدته التي كانت تعمل من أجله، وأجل أخيه الصغير منصور، وهو صاحب قرار أيضاً حين يذهب إلى العم محمد ليستفسر عن تاريخ أسرته، فقد كانت هذه الأسرة ذات مكارم، وكان جده ثرياً من أثرياء مكة وتاجراً يشار إليه بالبنان ويقصده أصحاب الحاجات[٣] وهو صاحب قرار أيضاً حين فاتح إسماعيل أمه برغبته في مصارحة صديقه كمال بأنه يعتزم أن يخطب شقيقته "سميرة"[٤]، كما كان صاحب قرار حين أدرك أن والد

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ - ٢٥٥ .
(٢) الدمنهوري، حامد . **ومرت الأيام** .- ط١ .- بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٣م، ص١٨ .
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠ .
(٤) المصدر نفسه، ص٨٦ - ٨٨ .

"سميرة" يماطل بجوابه على طلبه للفروق المادية بين الأسرتين في تلك الأيام ، وهذه الصفات تؤكد ما قلناه سابقاً من أن الروائي السعودي في هذه المرحلة كان يرسم شخصياته - أو على الأقل - شخصيته الأساسية كما يشاء .

استحضار الدمنهوري لرواية " زينب " لمحمد حسين هيكل :

إن القارئ يعجب للشبه الكبير بين شخصية إسماعيل في هذه الرواية، وبين شخصية حامد في رواية " زينب " لمحمد حسين هيكل، وهي أول رواية فنية في الأدب العربي الحديث، فقد كان إسماعيل متردداً بين حبه لسميرة في مكة المكرمة، وسلوى بنت التاجر اللبناني، وكذلك كان حامد متردداً بين حبه لزينب الفتاة الفلاحة الفقيرة، وعزيزة ابنة عمه، وقد تزوجت عزيزة وضاع حامد في نهاية المطاف في رواية " زينب " وهذا ما جرى أيضاً لإسماعيل، فقد تزوجت سميرة وتوفيت سلوى، وضاع إسماعيل أيضاً، لكن الفرق بين الشخصيتين أن حامداً كان مدللاً، وكان الدلال سبباً في ضياعه، في حين أن إسماعيل كان يعتمد على نفسه، وينجح باستمرار في أعماله .

ويرى أحد الدارسين أن قلق حامد ينبع في رواية " زينب " من عجزه عن تحقيق عاطفة الحب التي تهفو إليها نفسه[1]، وأن إسماعيل موزع بين عاداته وتقاليده، وبين العادات والتقاليد في بعض البلدان العربية، فقد تداعت إلى ذهنه صور الزواج في بلده من جراء مقابلة في منزل والد سلوى بينه وبين سليم وذويه، وقد جاءوا بقصد خطبتها لسليم، فكان الحوار التالي بين إسماعيل وسلوى:

(... لتكن كما هي في بلدي ، لقد تزوج جدي دون أن يرى جدتي قبل "الشرعة" وأبي كذلك لم ير أمي إلا على كرسي "النصة" ومع ذلك فقد كانوا سعداء .

---

(١) انظر، بدر، د. عبد المحسن طه . **تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠ - ١٩٣٨م)** ٠- ط٥ ٠- القاهرة : طبعة دار المعارف ، ص٣٢٩ .

فتساءلتْ :

- أي سعادة تعني، وسعادة من منهما ؟.

فقال :

- سعادة الاثنين، وسعادة البيت .

فقالت متسائلة وهي تضحك :

- وشباب اليوم في بلدك، هل يرتضون هذا الأسلوب في الزواج وهذا النوع من السعادة؟.

وسكت .

استطردت :

- أغلب ظني أن معيار السعادة في نظرهم قد تغير، فرد عليها بقوله:

- العصر قد تغير فتغيروا معه، لقد اتجه أكثرهم إلى الخارج .

فعادت تقول :

- وليس كلهم سعداء، ليس المهم أن تراها وتعجب بها، وإنما المهم أن تتقارب الطبائع وتتفق الاتجاهات، لقد كان الزواج عندكم كورق اليانصيب ...)[1] .

يكشف هذا الحوار عن الفروق الاجتماعية التي تربى وعاش فيها كل من الشخصيتين، إسماعيل وسلوى، فهما من مجتمعين متفاوتين في النواحي الاجتماعية في العادات والتقاليد والروابط الاجتماعية وسواها .

وقد تكشفت لنا شخصية إسماعيل من خلال هذه الرواية التقليدية ذات الحركة الزمانية المتصاعدة المتتالية التي تناولت حياة إسماعيل من الصغر إلى أن أصبح رجلاً قد أدركته الأيام، وهو شخصية رئيسية نامية مثقلة بالأحداث، تتأثر بما يجري وتؤثر فيه دون أن تكون هذه الشخصية معقدة .

---

(١) **ومرت الأيام** ، ص ٢١٤ .

بنية الشخصية في رواية "البعث" :

أما شخصية البطولة في رواية " البعث " لمحمد علي مغربي التي صدرت في طبعتها الثانية عام ١٩٨٣م . فقد اختار لها المؤلف اسم أسامة، وهو فتى سعودي جاد كل الجدية، أخذ يبحث عن سبيل للعلاج فلم يجد حينذاك في بلاده المشفى المناسب، لذلك شرَّق إلى الهند بعد أن توكل على الله، وعاش مدة على ظهر السفينة التي كانت تحمله إلى تلك البلاد، وكان من ركاب الدرجة الأولى، ومعظمهم من الأوربيين، وقد لاحظ بعض السخرية المتخفية من ملابسه العربية الفضفاضة، ومن طريقة تناوله للطعام، ولما وصل إلى الهند تعرف على بعض المسلمين هناك الذين اهتموا بهذا العربي القادم من بلاد الإسلام ، وخاصة الشيخ عثمان الذي أولى الشاب كل رعاية واهتمام. عاش الفتى مدة في مدينة كراتشي، وتنقل بالقطار من مكان إلى آخر، فمر بقرى ومدن صغيرة إلى أن وصل إلى المشفى الذي سيعالج فيه .

وكان أسامة مثالاً للأخلاق العربية الأصيلة من جهة، وللتعاليم الإسلامية من جهة أخرى، فقد برهن للهنود أن هذا الحجازي الزائر يمتلك نفساً كريمة وأخلاقاً نبيلة، وهناك تعرف على فتاة تدعى "كيتي" فأحبها وأحبته، واستطاع أن يقربها إلى الإسلام، وأن يشرح لها مبادئ دينه السمحة، واحترامه للروابط الزوجية، ولذلك دار هذا الحديث بين كل من أسامة وكيتي :

(.. قال أسامة : اعلمي يا عزيزتي ... أن رسولنا - صلوات الله وسلامه عليه - يقول: لا فضل لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب. لقد سوى الإسلام بين الناس وأزال الطبقات بتعاليمه السمحة الكريمة، فأنا إن استرشدت بديني في أمرك لوجدت منه العضد والسند .

قالت الفتاة : فإني ما سمعت كاليوم حديثاً عجباً .

قال الفتى - وقد سر بما رأى من إصغائها إليه واستجابتها له :

أما الفقر فإنني أولاً لست بالغني، بل لو كنت غنياً وكان لي ملء الأرض ذهباً لما عدلت بك امرأة في الوجود. ليس الزواج يا عزيزتي تجارة أوراق مالية حتى ندخل فيه حساب الغنى والفقر والثروة والعدم. إن الزواج شركة حياة، شركة معنوية يشارك فيها قلبان وتتحد فيها روحان فما دخل العقار والدينار، والزرع والضرع ؟ قالت الفتاة: فإني أريد أن أعرف أيضاً رأي دينكم في الفقر؟

قال الفتى - وقد زاده استفسارها واهتمامها تدفقاً -

أما ديننا فهو دين الفقراء والمساكين ، وما أنصفت ديانة سماوية أو شريعة أرضية الفقراء كما أنصفتهم ديانتنا ..) [1] .

ولما سألها إذا كانت تقبل به زوجاً استفسرت عن قضية الحجاب الذي ما وضعته يوماً على وجهها فكان هذا الحوار .

(... قالت فإني أعدك أن يكون جوابي قريباً، ولعلك تعرف أن لوالدتي في هذا الأمر شأنا غير شأني ولكن قل لي بالله هل تفرض عليَّ هذا الحجاب الثقيل الذي تتحدث عنه إذا ما صرت لك زوجاً ؟ قال : أما إن كنا هنا فلا، وأما إن ذهبنا إلى بلادي فنعم .

قالت ولكني لا أطيق هذا الحجاب الذي ما وضعته يوماً على وجهي.

قال : لست أول من يحاول الاعتياد على شيء لم يألفه، فإن كثيرات من النساء يفدن إلى بلادنا مع أزواجهن ولكن في بلادهن كما أنت الآن ولكنهن بحكم وضع البلاد وعاداتها يتخذن الحجاب ويحرصن عليه، حرصاً على كرامة أزواجهن ومراعاة لعادات البلاد التي ينزلنها واحتراماً لأخلاق أهلها بل إني عرفت واحدة منهن تتفانى في ذلك حتى تزيد على نساء الحجاز أنفسهن .

---

(١) مغربي، محمد علي . **البعث** - جدة ، المملكة العربية السعودية : شركة تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي، رقم (٨١) عام ١٤٠٣هـ ، ص٩٧ - ٩٨ .

قالت : فإن هذا هو ما يسميه غوستاف لوبون "حمى الجماهير" .

قال : نعم هو شيء من ذلك يا كيتي العزيزة ...)[1] .

وهكذا نجد أن هذه الشخصية التي رسمها لنا محمد علي مغربي شخصية باهتة الملامح إلى حد ما، وهي شخصية ضمن رواية تعليمية ، الأهمية فيها للحدث، والغاية أخلاقية ، ولذلك كانت الشخصية الرئيسية مسطحة ، مع أنها ذات ثوابت وأسس قوية جداً.

بنية الشخصية في روايتي "أحمد السباعي":

يقدم أحمد السباعي شخصيته الرئيسية في روايته " فكرة " التي صدرت في طبعتها الأولى في القاهرة عام ١٩٤٨م ، وهي شخصية نسائية أولاً تعيش ضمن أحداث متتالية قريبة من الطابع الرومانسي، وتتجول " فكرة " من مكان إلى مكان في قرى شمال الطائف، والمروج المتصلة بها، وفي الغاب، ووادي العقيق ، وفي طريق القوافل، وتظل "فكرة" قريبة إلى "سالم" الذي يتعرف عليها مصادفة ثم تظهر له في نهاية المطاف أنها شقيقته التي ضاعت منذ اثنين وعشرين عاماً، وقد تعرفت عليها العمة حين ساقت "فكرة" قدماها إلى دار آل عامر في مكة المكرمة ودار بين "فكرة" و "العمة" هذا الحوار :

(... كنت سمعتك تتحدثين عن ابنة لأخيك فقدتها في طريق الطائف، ولم يتصل بك خبرها .. فهل كانت لها ملامح خاصة تعرفينها بها فيما لو رأيتها ؟؟.

- إنها فقدت في أوائل عامها الثاني، وليس لطفلة في تلك السن ملامح يمكن التعرف بها على شخصها! وبفرض ذلك .. فمن المستحيل أن تبقى محتفظة بملامحها فيما لو وجدت، فإن مرور اثنتين وعشرين سنة كفيل بكل تغيير في ملامحها، وشكلها وتكوين جسمها» .

---

(١) المصدر السابق ، ص١٠٢ .

- وإذا تركت هذا جانباً أليس في استطاعتي أن أعرف الحقيقة من الملابسات التي تفقد فيها ابنة من أحضان أبويها المسافرين .

- إن الملابسات في ذلك الظرف، كانت كأنما قد أعدت إعداداً .. فقد كنت وأبواها مسافرين إلى الطائف في قافلة طويلة من أقاربنا وجيراننا وبني عمومتنا، وكنا نزولاً ليلتها في (السيل) من محطات الطائف، وغدونا مصبحين إلى رحالنا وليس للبنت من فرط دلالها قاعدة فيما يختص بركوبها، فهي أحياناً في حجر أمها، وأحياناً في حجر أبيها، ومرات قليلة موزعة بين شقادف نفر عزيز علينا من أقاربنا، وكان نظام القافلة يجعل شقدف الأم في الطليعة، ثم تتقاطر العير الخاصة بالأحمال بعده، ثم يأتي على إثره شقدفان لجماعة من بني عمنا من غير الأقارب الذين ذكرت، ثم يأتي على إثره الشقدف الخاص بي وأخي، ويتقاطر بعده غيره من جمال الأحمال أو الشقادف، فيقضي الوضع أن يفصل بين شقدفنا وشقدف الأم بعض جمال للأحمال والشقادف، ويفصلنا عن أقاربنا بعض جمال لأبناء العم)[1].

وإذا "فكرة" هي "آسيا" وإذا هي أخت "سالم" ولذلك أنهى السباعي روايته بهذا السرد الذي يتضمن في داخله الحوار الضمني ومن أهمه أن العمة تذكرت علامة في أحد ساقي ابنة أخيها، وقالت :

(... لدي شخصياً علامة لا تقبل الشك .. فقد كان في أحد ساقيها مما يلي الركبة، شامة مستديرة في حجم غير طبيعي يميل في لونه إلى الحمرة، وأعتقد أن مثل هذه العلامة لا يتناولها الزمن، وإذا تغير شيء من لونها فإن موقعها لا يناله التغيير، كذلك حجمها سيبقى فارقاً بينها وبين كل شامة طبيعية .

ورأت "فكرة" نفسها تكشف عن ساقها وتشير بيدها إلى الجزء الذي يلي ركبتها وهي تقول : "ألا يمكن أن تكون الشامة قريبة من هذه» " .

(١) السباعي ، أحمد . **فكرة** ٠- ط٢ ٠- دار الصافي للطباعة والنشر ، ١٩٨٩م ، ص ١٥٣ .

وكانت شامة "فكرة" قد استدارت في حجم أكبر من الحجم الطبيعي، وضرب لونها بين الحمرة والصفرة .. نظرت إليها السيدة العجوز نظرة كانت فارقاً بينها وبين السمت الهادئ والجلسة الوقور، فقد ندت منها صرخة عالية ثم ألقت بنفسها عليها وهي تصيح:

"وابنتاه ... إنها ابنة أخي الغالية "

ودخل سالم على صوت الضجة .. فإذا " فكرة " صديقته بين مسارح الوديان ومصاعد الجبال ومسار الكهوف، تنطوي بين أحضان عمته وسيل من القبلات ينثال على جبينها ووجنتها .

وصاحت العمة : " إنها أختك يا سالم .. أختك آسيا من أبيك وأمك .. إنها أختك ولا عبرة بكل ما قلنا لك عن وفاتها " فما ملك سالم أن اندفع إليها وانهال على رأسها وجبينها لثماً وتقبيلاً ... ورأى نفسه يجمع أصابعه في أسفل ذقنها ويرفع وجهها في أناة رقيقة حتى يصافح عينيه المترقرقة بدمعة حارة ثم يقول لها:

(.. هنا أخوك .. هنا أخوك يا آسيا وليتني أعرف الماكر الذي أطلق عليك "فكرة" لأحاسبه على إمعانه في التضليل ...)[1] .

وفكرة هذه الشخصية النسائية البطلة تشبه إلى حد بعيد أبطال الحكايات الشعبية بما تواجهه من أحداث، وبما تتمتع به من شخصية متفتحة وناضجة وهي ابنة البيئة التي مرت بها الأحداث، حتى إن أحد الدارسين يرى أن «الغاب» في هذه الرواية كائن مثالي مساند لفكرة الشخصية الرئيسة في الرواية، وليس من المبالغة أن نقول : إن الغاب هو الشخصية الرئيسة الثالثة بعد فكرة وسالم[2] .

---

(١) المصدر السابق ، ص١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) الملا، أسامه محمد . أثر المكان في تشكيل الرواية السعودية لدى جيل الرواد، **رسالة ماجستير**، مخطوطة، جامعة الملك فيصل ١٤١٩-١٤٢٠هـ، ص٢٨ .

ونتوقف عند شخصية "أحمد" الذي اختاره أحمد السباعي بطلاً لروايته لما يمكننا أن نطلق عليه مجازاً مصطلح رواية وهي رواية "أيامي" التي صدرت في طبعتها الأولى في القاهرة عام ١٣٧٤هـ، وكانت في طبعتيها الأولى والثانية بعنوان "أبو زامل" ثم غير العنوان في الطبعة الثالثة التي صدرت في مكة المكرمة عام ١٣٩٠هـ . إلى "أيامي" وهي أشبه بالمذكرات اليومية التي تتناول حياة المجتمع السعودي ومشكلاته اليومية في مرحلة كتابة الرواية[١] .

التشابه بين "أيامي" لأحمد السباعي و "الأيام" : لطه حسين :

والحقيقة ينبغي أن نتنبه على قضية مهمة، وهي أن نربط ما بين " الأيام " لطه حسين، و " أيامي " لأحمد السباعي، فكلاهما سيرة ذاتية، وكلاهما يمثل المؤلف في طفولته، ثم إن بطل "أيامي" يدعى "أحمد" ومؤلفها "أحمد" وهو يروي لنا طفولة "أحمد" في الكتاب، وينتقل به إلى مرحلة أبجد هوز، ويصف في أثناء ذلك طريقة التعليم في الكتاتيب، وطريقة قبول الطلاب في الصفوف، ثم كان يصف زملاءه الطلاب، وما يصدر عنهم من أفعال، فعباس مثلاً يصفه بأنه شيطان الفصل، وينتقل بعد ذلك إلى مدرسة أكثر رقياً، ثم يصل إلى مرحلة المراهقة ويسميها "الطيش" .

وما دام هذا العمل قريباً من السيرة الذاتية، إذاً لا بد أن يسرد البطل الأحداث بضمير المفرد المتكلم، وهذا ما نجده في فصول هذه الرواية السبعة عشر، فهو في "نقطة تحول" المقطع (١٥) يصف لنا كيف كانت البلاد تستضيء بالزيت، وكان التعليم فيها بدائياً . يقول في بداية هذا المقطع :

(ودام عملي في الدكان إلى شهور كنت أشعر أثناءها أنني في حاجة إلى

---

(١) القحطاني، سلطان . رواد الرواية الفنية في المملكة العربية السعودية، **مجلة قوافل** ، السنة الرابعة، العدد الثامن ١٩٩٧م، ص ٧٧ .

تجديد رأس المال كلما تقدمت الأيام بي، وكنت قد اطلعت في بعض ما أقرأ على نبذة طريفة يصف أحد الأدباء فيها جاراً له يحاول التجارة عبثاً فقال : "إنه لو تاجر في الزيت لمحا الله آية الليل" .

وليس مجهولاً أنهم كانوا يستضيئون بالزيت، فلم يستبعد الأديب الظريف أن يمحو الله آية الليل لو تاجر جاره الفاشل في زيت الاستصباح؛ ولا أنكر أنني كنت لا أتذكر هذه الطرفة حتى ينتابني الخوف من أن تأمر الحكومة بمنع تعاطي الشاي إكراماً لحظي العاثر فيما أتاجر ولكن الحكومة كانت أعدل من أن تعلن مثل هذه الأوامر؛ ومع ذلك فقد أبى حظي إلا أن يعاكسني في إصرار، وأبت الصدف إلا أن تشاكسني إذا كان موضوع الحظ لا يزيد على خرافة لا ظل للحقيقة فيها .

وأشرق دكاني في أحد الأيام بإشراقة زميل قديم رأى أن يزورني بعد تباعد طويل، وكان في زيارته ما يصح أن أسميه بنقطة التحول. فقد رأى وفاؤه أن ينقذني من حياة التبلبل التي أعيشها إلى حياة أخرى لا أقول إنها كانت سعيدة ولكني أقول إنها كانت خالصة من شوائب القلق رغم ما فيها من إقلال .

قال زميلي : ألست من حفاظ القرآن فيما أذكر ، قلت : وإنني من مجوديه، ودارسي أحوال الغنة وأحكام المد فيه .

قال : وما رأيك إذا أضفناك إلى المدرسة التي ندرس فيها، كمعلم للقرآن؟ .

فأطرقت رأسي في هيئة المفكر الذي لا يريد أن يجازف بترك تجارته الرابحة إلى الوظيفة قبل أن يقلب وجوه الرأي، ويزن الملابسات بأدق ما عرفت به موازين الرأي، ثم اعتدلت وشرعت أطيل النظر إليه في تخابث، وأنا أكاد لفرط سروري أن أنهال على راحته لثماً وتقبيلاً ..)[1] .

---

(١) السباعي، أحمد . **أيامي** .- ط١ .- جدة : المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٢هـ، ص ٨٢ - ٨٣ .

وهكذا أصبح أحمد معلماً، ثم نال كرسي الأستاذية في المقطع (١٦) وكان يصف التعليم والعلاقات التي تربط الأساتذة بعضهم ببعض، ثم يتوصل في المقطع الأخير إلى انتقاله للعمل في الصحافة والأدب، ويذكر بعضاً من الأدباء الشباب الذين لمعوا في تلك الحقبة في مكة المكرمة فيقول :

(... في هذه الفترة المبكرة لمع في مكة المكرمة من شبابنا الأساتذة محمد سرور الصبان، عبد الوهاب آشي، محمد سعيد العامودي، جميل مقادمي، عمر عرب، حسين نظيف، كانوا يتحلقون حول الشيخ محمد سرور، فقد كانت له مكتبة في الشارع اليوسفي لبيع الكتب الأدبية، وكان له مركاز في ردهة المكتبة يجمع بعضهم أحياناً، كما كان بيته في المسفلة مجمعاً لسمرهم في أكثر الليالي، كما كانت للشيخ حسين نظيف خلوة عند باب العتيق تجمعهم في بعض ساعات النهار، وتتابع ظهور الأسماء في مكة لتضاف إلى ما قدمت وليكونوا جميعاً ما نسميه بالرعيل الأول، فكان الأساتذة محمد حسن فقي، حسين سرحان، أحمد غزاوي، وأحمد العربي، عبد السلام عمر، أمين عقيل، عبد الله فدا، حامد كعكي، عزيز ضياء، ثم محمد سعيد عبد المقصود وأخيراً أحمد سباعي إذا قبلوا إضافته لأسمائهم ..)[1] .

وهكذا يظل يذكر هذه الأسماء وسواها إلى أن يتوصل إلى صحيفة "صوت الحجاز" والعمل بها محرراً ثم مديراً عاماً لها، وما صادفه فيها من أحداث لها صلة بالعمل الصحفي.

ومع ذلك تظل هذه الشخصية بعيدة عن أن تكون شخصية روائية بما تحمله كلمة رواية من تناغم بين الشكل والمضمون، بين الصورة والألفاظ، وذلك لأن هذه الشخصية شبيهة بأية شخصية نمطية لا تمتلك صفات خاصة بها .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠١ .

وهكذا نجد أن الشخصية في الرواية السعودية في مرحلة البدايات التي نستطيع تحديدها بالفترة الزمنية من ١٣٤٩ إلى ١٣٨٠هـ . كانت شخصية عادية قريبة كل القرب من الواقع ، ولم يستطع هؤلاء الروائيون أن يرتفعوا بها إلى مصاف الشخصية الروائية المقعِّدة النامية[١] التي تجذب الأنظار إليها بما فيها من غنى وتقعيد وثراء ، وهي تحمل دلالة واحدة، إما أن تكون خيرة وإما أن تكون شريرة، إما أن تكون جميلة وإما أن تكون قبيحة ، فهي لا تحمل في داخلها طابع الثنائيات والتعدد ، ولذلك كانت طيعة في يد صانعها الذي يحملها أفكاره ومواقفه ورؤاه لينتقل بها من مكان إلى مكان، وهي شخصيات لم تستقل عن مؤلفيها، ولم تستطع الخروج على إرادات كتابها. الأمر الذي يجعلنا نكاد نجزم بأن الروائيين في هذه الحقبة الزمنية كانوا يرسمون شخصياتهم كما يشاءون، من خلال الطريقة التحليلية ومن خلال التخطيط الأولي لأحداث الروايات ومكانها وزمانها وشخصياتها. كما أن لغة الرواية وتقنيات السرد في هذه المرحلة كانت بسيطة غير معقدة وقريبة من وعي المتلقي، وهي تعكس المستوى الثقافي للمتلقي .

ولسيطرة الروائي في هذه المرحلة على شخصياته سيطرة تامة وتدخله في رسم أبعادها ومعرفته بكل دقائقها آثارنا التركيز في هذا البحث على بنية الشخصية ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إنها شخصيات أسيرة لإرادات الروائيين ، فكانت حقيقة بالدراسة في هذا البحث ، وإن كنا لا ننكر أن عنصر دلالة اسم الشخصية قد استأثر بجزء كبير من الحديث هنا ، فإننا نؤكد أن ذلك راجع إلى إيماننا بأن الروائيين أو بعضهم في هذه المرحلة كانوا يرون لاسم الشخصية دلالة معنوية في سياق روايتهم ، وهو ما جعله يبدو أكثر وضوحاً في ثنايا هذا البحث .

---

(٢) انظر : عباس ، د. نصر محمد . **البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة** ٠- الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص٣٢ .

مصادر البحث

١ - ابن منظور . **لسان العرب** ؛ تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين ، جمهورية مصر العربية : طبعة دار المعارف .

٢ - الأنصاري ، عبد القدوس . **التوأمان** ٠- ط٣ ٠- دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة ، ١٩٩٤م .

٣ - بدر، عبد المحسن طه . **تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠- ١٣٨)**٠- ط٥ ٠- مصر : دار المعارف ، ١٩٩٢م .

٤ - الدمنهوري، حامد . **ثمن التضحية** ٠- ط١ ٠- الرياض : دار الفكر ، عام ١٩٥٩م.

٥ - الدمنهوري، حامد . **ومرت الأيام** ٠- ط١٠- بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٣م.

٦ - السباعي ، أحمد . **أيامي** ٠- ط١ ٠- جدة : المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٢هـ .

٧ - السباعي، أحمد . **فكرة** ٠- ط٢ ٠- دار الصافي للطباعة والنشر، ١٩٨٩م .

٨ - عباس، د. نصر محمد . **البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة** ؛ دراسة نقدية تحليلية ٠- الرياض : طبعة دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٣م .

٩ - القحطاني، سلطان . رواد الرواية الفنية في المملكة العربية السعودية، **مجلة قوافل**، السنة الرابعة، العدد الثامن، ١٩٩٧م .

١٠- مغربي، محمد علي . **البعث** ٠- جدة ، المملكة العربية السعودية : شركة تهامة، سلسلة الكتاب السعودي، رقم ٨١ عام ١٤٠٣هـ .

١١- الملا، أسامه محمد . أثر المكان في تشكيل الرواية السعودية لدى جيل الرواد (١٣٤٩ - ١٣٨٠هـ) **رسالة ماجستير**، مخطوطة ، جامعة الملك فيصل ١٤١٩ - ١٤٢٠هـ .

١٢ - وادي، د. طه . **دراسات في نقد الرواية** ٠- مصر : دار المعارف ، ١٩٨٩م .